الغريب

بقلم: هبة حمدي

الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل، جلست نعمة مترددة حائرة .. طارة تنظر تجاه الباب وطارة أخرى تنصت لأصوات المارة بالشارع، يكسو وجهها ملامح الخوف وعدم الأرتياح، فقد مر على مغادرة وحيدها ووالده ساعة كاملة من دون أن يتصل بها أحدا منهم ويطمئنها، ضجيج الأفكار المتناثرة بداخلها لم يجعل كلمات الأطمئنان التي حدثوها بها قبل الرحيل أن يهدأ من ثورة الخوف.

فلم تكن الليلة كالبارحة منذ أن جاء عبدالرحيم عم زوجها بدران وطرح عليه تلك الفكرة الحمقاء ليقنعه بخوض الخطوة الذي لم يجرأ عليها أحدا من قبل، إنه ذلك الكنز الدفين داخل سرداب منزل الجد الأكبر الشيخ مسرور قبل ستة وسبعون عاما مضت، ذلك الأرث الذي لا يعلم عنه سواه.. بعد أن جاء إلى منزله العتيق بقريته التابعة لمركز مغاغه، ذات ليلة لم تغادر أحداثها كيان الجد الراحل منذ عشرون عاما، فقد كان كلما آتت فرصة يقص على الجميع مافعله الغريب.. الذي زاره تلك الليلة.

كان يتكئ على عصاه المعدنية، لم يكن يبدو عليه عمره الذي كان لا يقل عن سبعون عاما، بسبب نحافته وقصر قامته الذي لم يظهر عليه تلك السنوات، جاء مستنجداً يحتمي من تلك الأمطار المتناثرة في كافة أرجاء القرية، وملابسة الرثه لم تكن لتحميه طويلاً أو تدفئه .. أحسن ضيافته الشيخ مسرور، وقبل بزوغ الشمس بما يقارب ساعة، جلسا كلاهما على أريكة صغيرة تتوسط الغرفة الرئيسية للمنزل.

أشار إليه الغريب بسبابته وهو يقول مرتجفاً بعض الشئ:

- لم أكن أتوقع أن تحسن إلِي رغم ماسمعته عنك من بعض أهل القرية.. جميعهم قالو بأنك قصير اليد، لا بها إي حيلة فلن تكرم ضيفك وهذا نتاج ماشهدوا منك تجاههم طيلة سنوات عمرك الثلاثون.

قاطعة مستنكراً..

- ورغم ذلك جئتني في النهاية .. رغم تلك الكلمات التي تتردد من حولي.

أعتدل الغريب في جلسته قائلاً:

- أردت أن أعطى لك فرصة.. قبل أن أحكم عليك مثلما فعلت مع باقي أهل القرية.

قاطعة مرة أخرى وهو يقول:

- وما الهدف مما تفعله معي أو مع غيري، فأنت غريب.. زائر لم يرك أحداً منا من قبل، والآن تأتي إلينا للحكم من دون أن نعلم عنك شئ.

نهض عن مجلسه وهو يسير بعيدا بعض الخطوات قبل أن يلتفت إليه وقد تعالت نبرة كلماته بعض الشئ مكملاً حديثه إليه..

- من أنت وماذا تريد مني، لا تجعلنى أن أندم على مافعلته معك.

أشار إليه الغريب بيده طالباً منه التحكم في كلماته قبل أن يقول:

- اجيبنى أنت لما يقول عنك أهل القرية هذا عنك أولاً ثم سأخبرك ماذا أريد.

اجابة مسرور:

- لأن بعضهم يريد أستغلال عملي لصالحه.. فأنا مُغسل وأدفن الموتى، وقبل خمسة سنوات جاءني دجالاً أرد مني نبش القبور وأستخراج بعضاً من أحشاءهم وعيونهم لتحضير أعمالا سفلى ملعونة، وهذا ما أكتشفته عندما أخبرني بأنه يريد زيارة قبر قريبه الذي لم يمر عليه أياما قليلة بين أحضان التراب، وكنت أعرف صاحب الجثمان جيدا فأدركت خدعته لي وأكتشف أمره، ومنذ ذلك اليوم أبتعدت عن أهل القرية لأن أحدهم من باعنى وأخبره عن تلك المعلومات ليشركني عملهم اللعين.

مرت عدة ثوان قبل يحاوره الغريب من جديد وهو يقول بصوتً هادئ:

- هذا أفضل ما فعلت...و

قاطعة مسرور وهو يقول:

- بألحاح يجب أن تجيبني من أنت ولا تتملص من الأجابة وإلا أخرجت في الحال.

أجابه:

- أنا رجلاً رحال، أملك سلطانا لن تدرك حكمه ومالاً لن تستوعب مخيلتك مقدارة، وهبت عمري منذ بضع سنوات للترحال، البحث عن معادن الأشخاص النفيثة النادرة، لأعطيهم مايستحقون.

بدت ملامح الدهشة على وجه مسرور.. وهو يستمع لكلمات الغريب..

- لا تتعجب ف المحظوظ هو من يجذبني إليه وأدخل داره، فستنفتح أمامه أبواب السعادة والغنى.. ولكن.....

قاطعة مسرور متلهفاً..

- ولكن ماذا؟

أكمل الغريب حديثه:

- أريدك أن تتولى أمور توزيع الثروة على من تبقى من أهل القرية والقرى المجاورة، الذين أكرموني ولم يفزعوا من هذا المسخ الكهل الجالس أمامك.. فليس أمامي الكثير من الأيام المتبقية لي بهذه الحياة، أدرك ذلك جيدا.

مسرور :

- لا تقلق.. فأختيارك صائب تماماً

أجابه الغريب بنبرة يشوبها المكراً:

- لا أقلق.. أبداً فالمال بأمان طالما بداخل هذا الصندوق ..

مسرور:

- أين هذا الصندوق؟

الغريب:

- لا تتعجل فهو بالخارج بجوار المنزل، ولكن أحترس أن تبدد الأمانات، أسماءهم والقيمة المالية الخاصة بكل شخصا منهم، هنا فوق تلك المنضدة.

ألتفت مسرور ليجد تلك الورقة الرثه وقد لمعت عينيه وذاد بريقهما.. شعر به الغريب ولاحقه بكلماته التحذير والوعيد إذا خالف ذلك الأتفاق وهو يقول:

- أحذر فربما ينقلب كل شئ إلى الأبدين يا مسرور.. ولا تنسى لن تنال شئ من هذا المال إلا بد أن ينال كلا منهما حقه.. لا تبدد تتكاسل أو تمل، فالصبر فمفتاحك يا مسرور.

ترجل الغريب من جلسته ليتجه نحو الباب وهو يشير إلى موضع الصندوق الذي كان ارتفاعه يقارب المترين وعرضه ثلاثه.. تعجب مسرور فكيف لهذا الكهل أن يحمل ذلك الصندوق ويطول البلاد.. قبل أن يمطر الغريب بسؤاله فاجأة الغريب بالأختفاء.

ظل يردد على أسمه ويبحث هنا وهناك ولكنك سار سراب كأنه كان داخل حلماً قصير، ولكن كيف وهو بجوار ذلك الصندوق يلمسه بيده ويتحسس السبائك والنقود.

مرت بضعة أسابيع وهو لايزال يبحث عن الغريب، ولكن من دون جدوى، حتى قرر ذات ليلة بأن يبدأ بالبحث وتوزيع المال ليحوز بنصيبه كالباقين.. طالت ليال البحث وتمكن من توصيل الثروة، فكل شئ كان على مايرام، حتى علم بما يحدث زوجته الثانية.

كانت وردة غانية، قبل أن يتزوجها بعد أن رأها خلال مراسم دفن أحد الموتى فكانت زوجته وكانت جميلة وكانت تثير كل الحاضرين رغم لباسها الأسود وملامحة الحزينة على مفقودها.. فبادلا النظرات والهمسات من دون أن يشعر بهما أحد.. كانت الحبيبة والعشيقة والصديقة التي يلجئ إليها في كل الأزمات التي تواجه.

أشارت عليه أقتراحا حينما قص عليها ما حدث مع الغريب، كانت متحمسة وهى تطمئن قلبه الملول، فلقد مل البحث عن هؤلاء الأشخاص، قائلة:

- لن يجدك ذلك المجزوب.. لقد تركك وترك ثروته الطائلة من دون الألتفاف إليك ولا حتى السؤال، هؤلاء لن يشعروا بشئ إذ لم يصل إليهم هذا المال، لقت تحاملت كثيرا ويكفي هذا القدر الذي هدر حتى الآن.. فلنستمتع قليلا هذا هو وقتنا نحن الشباب، مؤكدا إنه توفي وتبخرت سيرته عبر الهواء.

كان يستمع إليها من دون أن ينطق ببنت شفه، حائرا بين تحذير الغريب وبين أقتناعه بحديث زوجته الحمقاء، ذلك الطمع الذي تغلل قلبها هو من جعلها تشجعه على فعلته.. حاول أن يتوارى كثيرا عن ماقلته وأن يتملص من هذا العهد.. وقد كان مر عدة ليال قبل أن يخبرها بأنه قررأن يكون الصندوق وماتبقى فيه ملكا له دون أن يعلم به أحد.

تلك الليلة.. وخلال نومه رآه الغريب مرة آخرى ولكنه شاب في ريعان شبابه لا يتجاوز الخمسة والثلاثون، طويل القامة عريض المنكبين يرتدى جلبابا حريري، يعلو رأسه تاجً براقً تكسو الماسات.. ينظر إليه بعينين متلهبة تملؤها لهيب الحقد تجاهه لم يتفوه إلا بكلمه واحدة، كانت كافيه بأن تحرك براكين كيانه ولم تطفئ أبدا، حينما قال بصوتاً أجش وهو يشير إليه قائلا:

- لن تنجو أبداا!!.

فزع من حلمه التعس، ليخطوة بخوات متسرعة نحو الصندوق الذي وجده، بمكانه ولكن قد أبتلعته الأرض وتبدلت بزجاج تحيطة ثلاثة أفاعي، ليكون صوب عينيه طيلة الوقت ولكن من دون جدوى، لن يتمكن من لمسه.. لن ينعم بالكنز.. لن ينعم بالراحة.. كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها الغريب، فما حدث منه لم يكن هذا فقط.. لقد حرقت وردة بعد ثلاث ليال من دون سبب يذكر، كانت تلك اللعنة.. لعنة الثلاث.

فكلما مرت ثلاثة أيام، ثلاثة أسابيع، ثلاثة أشهر كانت تتوالى الكوارث.. لقد خسر كل شئ عدا منزله لما يحوي، حاول أن ينقب بمفرده ومع آخرون طمعا في الكنز ولكن جميعهم ماتوا ميتة شنعاء.. فأحدهم قطع عنقه وهو ينقب خلال الليل بمفرده، والآخر سقط من

سقال بناء بعد أن أنزلقت قدماه، وغيره كانت في قاربه يصطاد بهدوء متأملا الهدوء الذي يحيطه. قبل أن يجد قاربه ثقب ليبتلع عمره بين لحظه وثانية.

توقف بعد أن أبتلعه الخوف.. فقد أكتفى بقص ماحدث لأحفاده وأبناءه من زوجته الأولى وهو يوصي بأن يحاولوا أصلاح ما أفسده بعد أن أسلم لما قالته وردة اللعينة.

عادت فايزة إلى رشدها حينما تسارعت أجراس الباب.. لتخرجها من تلك الذكريات وهذه الأحداث المهمة التي تتلاعب بأقدارهم، عبدالرحيم هذا اللعين الذي تلاعب برأسهما وهو يقول:

- لقد توصلت لشخص سيمكنا من الوصول للكنز المفقود.. سيتمكن من فك ذلك اللوح الزجاجي لنتمكن من الأستمتاع بثروة جدنا الأكبر.

أخذ يترنح بعقولهم، مستغلا لتلك الضائقة التي يمرون بها.. لم ينتظر طويلا لم يمر ثلاث ساعات حتى غادر البيت برفقه ابنها وزوجها بدران، ليقابلا هذا الشخص المجهول أمام منزل الجد.

صعقت حينما رأت ولدها غارقً في الدماء، لم تستطع أن تميز هل هذه دماءه أم إنها دماء أحدا غيره، تسألت في فزع إين أباك.. كانت أنفاسه المتلاحقه ودقات قلبه التي تستطيع سماعها بضوح من موضعها، كافية بأن تخبرها كل شئ، كلماته اللاهثه المتقطعة بيت شفتاه وأنزلاق تلك الدموع الحارة من عينيه، أخبرتها بكل شئ.

لقد أبتلعت تلك الأفاعى اللعينة حين كان يقف وعبدالرحيم بجوار ذلك الصندوق، البراق لقد رآه تلك السبائك والمجوهرات النفيثة بعينيه.. ولكن ما أن تفوه ذلك الغريب أنشقت الأرض من بين

أقدامهم.. لقد أبتلعة بدران وعمه عبدالرحيم لم تعطيهم الأفاعى فرصة للنجاه فلقد ألتهمتهما أحياء وتلك الدماء تعود لهما.

لا يعرف خليل هل سيأثر منه هذا الشئ وتطوله تلك اللعنة أم تركه الغريب لشئ في نفسه، لا يعلم هذا الغريب يعلم بهذا السر وتلك كرامه أنقلبت عليهما أم إنه ترك من دون ثأر ليخبر الجميع بأن لا آمل في هذا الكنز .. وسيظل أمام أعينهم من دون أن ينعموا به.

قضى خليل عشر أعوام بين فزع وصراعات داخلية تلتهم كل آماله وأحلامه، فما حدث لم يغادر ذاكرته يوما، تناثرت الشائعات بين مؤكدة ونافيه، منهم من قال بأنه هو من قتلهما لأن لا وجود لذلك القارئ الغريب فلم يراه أحدا غيره، ومنهم من يقول فقد عقله بعد أن لعن كما حدث لأفراد تلك العائلة، ومنهم من يؤكد بأنه يراه كل يوم يسير بعد منتصف الليل غارقً في دماء مجهوله وهو يصيح بصوتاً مكتوم وكأنه يشكو حاله، ومنهم من يقسم بأنه رآه وهو يقطع رقاب الحيوانات ويأكلها بنهم كل ليلة، حتى إنهم ألقوا عليه سفاح القطط.. لم يعد يعلم خليل ماذا حل به، وهل يصدق ما يقال عنه، أم إنه كما يخيل له بأن تلك البوابة الحمراء التي يذهب إليها كل ليله، يحتمى بها بعد أن تبرز من داخل حائط غرفته ويجالس اباه وعبدالرحيم وكل من مات آثر تلك اللعنة هي الحقيقة.... ولكن بالنهاية

لولا تلك اللعوب لما حدث كل هذا، لولا ماحدث لكان الجميع أحياء ينعمون بتلك الثروة التى لا تقدر بثمن وحياة.